دور الفكرة الدينية في بناء الحضارة عند مالك بن نبي

د. احسن برامه

أستاذ محاضر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملخص:

شكلت الفكرة الدينية من حيث فاعليتها وقوتها اهتمام مالك بن نبي الذي حاول الكشف عن أثر هذه الفكرة في بناء الحضارة وفي إحداث التغيير الاجتماعي والأخلاقي.

حيث قام بتناول ذلك من خلال تحليل تاريخي عمل من خلاله على رصد العوامل التي تقف وراء حركة التاريخ، كما قام بتسليط الضوء على فكرة الفاعلية...حيث ترتبط فكرة الفاعلية في نهاية المطاف بمشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.

Résumé :

L'idée religieuse, de par son efficacité et sa force, a formé la pensée de Malek Bennabi qui a essayé de découvrir l'impact de cette idée dans la construction de la civilisation et dans le changement social et morale.

Bennabi a développé cette thèse en se basant sur une analyse historique des différents facteurs responsables du mouvement de l'histoire.

Il a également mis en lumière l'idée de l'éfficacité, qui a un rapport étroit avec le problème des idées dans le monde musulman.

مقدمة:

إن إدراك أهمية الفكرة الدينية الإسلامية بالنسبة للإنسان المسلم، لا تتطلب أكثر من أن نعود قليلا إلى الوراء (تاريخ) لنتفحص حالة شبه الجزيرة العربية قبل نزول الإسلام.

يقول مالك بن نبي: « ومن المعلوم أن جزيرة العرب مثلا لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجذبة يذهب وقته هباء لا ينتفع به لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة: الإنسان والتراب والوقت عوامل

راكدة خامدة. وبعبارة أصح مكدسة لا تؤدي أي دورا في التاريخ، حتى إذا ما تجلت الروح بغراء حراء – كما تجلت من قبل بالوادي المقدس، أو بمياه الأردن نشأت بين هذه العناصر الثلاثة المكدسة حضارة جديدة»[1].

وهكذا كانت فكرة التوحيد هي المرتكز الأساسي لبروز ميلاد جديد للإنسان والمجتمع على سواء. غير أن هذه الفكرة الدينية ليست فكرة منغلقة على نفسها وإنما هي فكرة تتواصل مع مختلف أوجه الحياة والتطور الحضاري.

غير أن هذه الفكرة الدينية الإسلامية ملزمة بإجراء تصفية للأفكار الميتة والمميتة التي شوّهت الفكرة الدينية نفسها وحاولت تجريدها من الأبعاد الحضارية والجمالية لفكرة التوحيد وملزمة في الوقت نفسه بتصفية القابلية للاستعمار من النفوس والعقول.

ويرى مالك بن نبي أن بناء الإنسان (الفرد) (المجتمع) وبالتالي الحضارة لا يمر دون إحداث التغييرات النفسية والاجتماعية المطلوبة بما تغرسه العقيدة من قيم جديدة. وفي كتاباته عن حقيقة الفكرة الدينية ركز مالك بن نبي على جانب الإيمان بالله والآخرة وعلى عنصر السلوك والعمل باعتباره الامتداد الاجتماعي الطبيعي للفكرة الدينية.

حيث تتضح أمامنا الأبعاد التاريخية والفكرية في رؤية مالك بن نبي الحضارية.

هذا وقد شكلت نظرية الدورة الحضارية حيزا كبيرا من التراث الفكري لمالك بن نبي ، فالتاريخ عنده يتمثل في دورات وكل دورة مرتبطة بشروط نفسية زمنية معينة ناتجة عن فكرة معينة تؤرخ من ميلادها عمليات التطور الاجتماعي.

وهذه الحضارة في تنقل مستمر فحينما تغرب شمس الحضارة في مجتمع ما فإنها تأخذ بالشروق في مجتمع آخر، طبقا لعوامل الازدهار والانحطاط، وقد تناول مالك بن نبي هذه الدورة الحضارية من عدة جوانب وزوايا.

فمرة تناولها من خلال جملة القيم النفسية والاجتماعية وتارة تناولها من خلال معادلة الإنسان + التراب + الزمن، وتارة تناولها من خلال عالم الأشياء وعالم الأشخاص وعالم الأفكار وتارة تناولها في إطار المراحل الثلاثة: مرحلة الروح، مرحلة العقل، مرحلة الغريزة.

غير أن الفكرة الأشد تأثيرا في فكر مالك بن نبي تتمثل في دور الفكرة الدينية في تكوين الحضارة من خلال قدرتها على تحقيق الضبط الاجتماعي و إعادة بناء أخلاق قوية في بعدها الفلسفي وفي بعدها الفلسفي و الاجتماعي مركزا على الكيفية التي استطاعت بها الفكرة الدينية إحداث ذلك التغيير الحضاري والاجتماعي والفكري والنفسي الكبير والهائل وسط ذلك المجتمع العربي البسيط وكيف نقلته الفكرة الدينية إلى اهتمامات وطموحات جديدة في عالم الأفكار، مبينا قدرة الفكرة الدينية على تكوين الفرد الحيوي الإيجابي والمجتمع المتماسك الموحد...

ليستنتج في النهاية أن ملاحظة انخفاض مستوى أخلاق المجتمع يؤول إلى نقص في الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية حين تدخل منعطف العقل وتنتهي هذه الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية عن القيام بمهمتها في مجتمع

---

[1] – مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عبد الصبور شاهين ، ط4 ، دار الفكر ، الجزائر ، 1987، ص: 56.

منحل [1] وقبل بدء دورة من الدورات أوعند بدايتها يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة أوفي نهاية الدورة يكون قد تفسخ حضاريا أوسلبت منه الحضارة فيدخل فيما بعد الحضارة.

وقد أسهب مالك بن نبي طويلا في تناول أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة وفي تفسير القوانين التي تحكم هذه الدورة الحضارية من خلال مختلف الزوايا مما يدل على عمق و أصالة وبعد النظرة الفكرية لهذا المفكر المتميز.

1- حركة التاريخ وعلاقتها بالحضارة في فكر مالك بن نبي:

لقد تنبه مالك بن نبي إلى أهمية البحث التاريخي باعتباره سجلا حضاريا حيث سعى لفهم العوامل التي تقف وراء حركة التاريخ.

وفي تحليل تلك العلاقة بين التاريخ كماضي وحاضر ومستقبل فكان واحدا من الذين اهتموا بالتاريخ في أبعاده الحضارية ولهذا جاءت آراءه في الموضوع متميزة من حيث الطرح والمنهج والمفهوم لتساهم في تعميق الرؤية الإسلامية للتاريخ. وقد حاول في البداية تحديد جوانب دراسة التاريخ حيث رأى أننا إذا تناولنا التاريخ بالقياس إلى الفرد كان دراسة نفسية وبالقياس إلى الجماعة يعد دراسة اجتماعية.

ولما كانت دراسة شرائط نمو مجتمع معين لا تقتصر على حقائق الجنس أو عوامل السياسة بقدر ما يخضع لخصائصه الأخلاقية والجمالية والصناعية المتوافرة في رقعة تلك الحضارة.

غير أن طبيعة المجتمع الغير معزولة تدفعه لبعض الصلات الضرورية مع بقية المجموعة الإنسانية تجعل للتاريخ جانبا ميتافيزيقيا إذ أن مجاله يمتد إلى ما وراء السببية التاريخية[2].

وهذا يكشف أن لحركة التاريخ الإنساني بصفة عامة جانب ميتافيزيقي أو كوني وجانب اجتماعي مرتبط بالأسباب.

والحضارة من هذا الجانب الأخير تتمثل أمامنا كأنها مجموعة عددية تتتابع في وحدات متشابهة ولكنها غير متماثلة. وهكذا تتجلى لأفهامنا حقيقة جوهرية في التاريخ هي: (دورة الحضارة) وكل دورة محددة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معين فهي حضارة بهذه الشروط [3].

وبناء لهذا التحديد لمجال دراسة التاريخ عرف مالك بن نبي التاريخ بأنه النشاط المشترك للأشياء والأشخاص والأفكار، وعلى هذا الأساس فالتاريخ ما هو إلا تلك الدورة الحضارية بمختلف عناصرها وأبعادها.

غير أن مالك بن نبي في تناوله للتاريخ نجده يستعمل مصطلحات متنوعة يحتاج كل مصطلح منها إلى وقفة تأملية طويلة منها: هدي التاريخ، شهادة التاريخ، الوظيفة التاريخية، العودة إلى التاريخ، نهاية التاريخ، شاشة التاريخ،

---

[1] – المرجع نفسه، ص: 77.

[2] - مالك بن نبي،، **وجهة العالم الإسلامي**، ط5، دار الفكر، الجزائر، 1986، ص:25.

[3] – **المرجع نفسه**، ص: 27.

مسرح التاريخ، عصا التاريخ، الخطوة التاريخية، ملابسات التاريخ، أهوال التاريخ... وكل ذلك للتعبير عن معاني عميقة لأشكال التاريخ ومراحله[1]، والتي لها دلالتها الفكرية والحضارية العميقة.

غير أن دراسة التاريخ انتقلت من منهج السرد والوصف إلى منهج التحليل والاستنتاج لرصد الأسباب والنتائج كخطوة أساسية للوصول إلى مرحلة التنبؤ في العلوم الإنسانية [2].

وفكرة التنبؤ في مجال العلوم الإنسانية قد تطورت من حيث المفهوم والمنهج إلى ما يعرف اليوم باستشراف المستقبل الذي يرتكز على الرياضيات والإحصاء. غير أن إمكانية التنبؤ في العلوم الإنسانية تقوم على معرفة الخلفية التاريخية للقضية أو الظاهرة كخطوة أساسية في هذا المجال.

وبناءا على هذه الأهمية أصبح التاريخ علما له تخصصات وفروع كالتاريخ السياسي والتاريخ الثقافي والعسكري... ومنهج وقامت مدارس كثيرة حاولت تفسير الحوادث التاريخية وفق أسس معينة.

ولا شك أن فهم الحادثة التاريخية على حقيقتها من شأنه أن يمنح الفكر الإسلامي بعدا واقعيا وحضاريا برؤية الإنسان داخل منظومة الزمن.

وقد عرض مالك بن نبي مختلف النظريات التي حاولت تقديم تفسير لحركة التاريخ، بعد أن أشاد بعبد الرحمان بن خلدون في فلسفة التاريخ في ربطه حركة التاريخ بالسنن والقواعد وفق تفسير منطقي بل قام بصياغته. فكان أول من أتيح له أن يقوم بصياغة قانون الدورة التاريخية la loi du cycle لولا أن مصطلح عصره قد وقف به عند ناتج معين من منتوجات الحضارة ونعني به الدولة وليس عند الحضارة نفسها[3].

إنّ كل حركة تاريخية إنما هي حركة تحكمها أسباب ليندمج فيما بعد كل وسط إنساني في حركته لينتج أسباب هذه الحركة. وأهم النظريات التي تناولها مالك بن نبي في تفسير حركة التاريخ النظرية المادية التي ترجع أسباب هذه الحركة إلى العوامل الاقتصادية حيث يستند الأساس الفلسفي لهذه النظرية إلى فكرة التعارض كما عبر عنها هيجل لأن منطق التاريخ خاضع لصراع الأضداد وللديالكتيك.

وعلى هذا الأساس فالفكرة الماركسية ترى أن الأسباب المتعارضة التي تؤدي إلى حدوث التغيرات الاجتماعية ذات الطابع الاقتصادي وميلاد المجتمع وشكل الحضارة الذي يتخذه ناشئان عن التعارض الاقتصادي، وهذه النظرية لا يمكن تعميمها على الخريطة الاقتصادية للعالم إلا في نطاق الفكرة الشيوعية.

أما المؤرخ الإنجليزي الكبير (أرنولد توينبي) فقد فسر الحركة التاريخية على أساس عنصر "التحدي"[4] بغض النظر عن نوع هذا التحدي اقتصاديا كان أم جغرافيا ففي رأيه أن التحدي يتوجه إلى ضمير الفرد أو الجماعة وتكون

---

[1] – مولود، عويمر، **فكرة التاريخ عند مالك بن نبي**، مجلة الرؤى العدد 20، مركز الدراسات الحضارية، 2003، ص:21.

[2] – العلوم الإنسانية، و يقصد بها العلوم التي تدرس الإنسان و هي علم التاريخ، علم الاجتماع، علم الاقتصاد، الأخلاق

[3] – مالك بن نبي، **شروط النهضة، مرجع سابق**، ص: 69.

[4] - مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية**، تر. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986. ص، ص: 20، 21.

مواجهته له بالقدر الذي تكون عليه أهمية الاستفزاز وخطورته، فهناك تناسب بين طبيعة الاستفزاز وبين الموقف الذي يتخذه الضمير في مواجهته وهذا التحدي أطلق عليه توينبي "التحدي المناسب" الذي يستلزم نشوء إجابة كافية لتحريك أسباب التغيير.

وهكذا يضع توينبي التغيير الاجتماعي بين حدين لا يتم خارج نطاقهما. وبهذه الطريقة يفسر المؤرخ الانجليزي أهم المراحل في التاريخ الإنساني، فيذهب إلى أن العلة في بقاء بعض الجماعات الإنسانية في حالة ركود هو أن التحدي لم يكن كافيا لدفع طاقتها إلى إجابته. بدليل حالة الإسكيمو كجماعة إنسانية لم يغير شرائط وجودها بل جمدت في شكل من أشكال الحياة بخلاف إخوانهم الذين يعيشون في الوادي المنخفض.

وبهذه الأمثلة يدلل توينبي كيف أن نقص التحدي أو زيادته يؤثر في حركة ونشاط المجتمع، إما بالوثوب إلى الأمام (استجابة إيجابية) أو التوقف والجمود (استجابة سلبية) أو الانحدار والفناء.

ليتناول إلى جانب النظرية المادية ونظرية توينبي، نظرية الفيلسوف الألماني سبنجلر Spengler الذي يفسر الحضارة باعتبارها ثمرة لعبقرية خاصة بها عنصرا معينا اتسم بالإبداع كما هو الشأن في علم الجبر بالنسبة إلى الحضارة العربية.

أما (كسرلنج) فيفسر الحضارة الأوربية باعتبارها مزيجا مكونا من روح المسيحية وتقاليد الجرمانية[1].

غير أن تفسير الظاهرة الإسلامية على ضوء النظريات السابقة ظل محدود جدا بسبب محدودية تأثير العوامل الاقتصادية أو عامل التحدي والعنصر بسبب عوامل التمايز في ظهورها وفي تطورها التاريخي عبر مختلف مراحل التاريخ حيث لعبت العوامل النفسية دورا كبيرا في هذه الحضارة وقد ركز مالك بن نبي على العوامل النفسية أساسا في تفسيره لحركة التاريخ دون إلغاء لتأثير باقي العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية.

ونظرا لذلك الارتباط الوثيق بين التاريخ والحضارة فقد آمن مالك بن نبي أن الحضارة تولد مرتين: الأولى حينما تولد الفكرة الدينية والثانية: حينما تولد في النفس، فقد كان شديد الاقتناع بدور الفكرة الدينية في بناء الحضارة وتأثيراتها في الحياة.

واتخذ من الآية الكريمة:﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[2] منطلقا لدراسة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية والتي استخلص منها نظريته في القابلية للاستعمار.

وقد تناول مالك بن نبي تأثير العامل النفسي في بناء الحضارة في الكثير من فصول كتبه بالشرح والتحليل للتأكيد على أهمية العوامل النفسية.

إلا أنه مع كثرة المدارس والمناهج والعوامل التي تحاول تفسير الحركة التاريخية، والتي تظهر آثارها في مؤلفات مالك بن نبي، يقف مالك بن نبي في قراءة وتفسير التاريخ كثيرا عند جانبين:

---

[1] – مالك بن نبي، **شروط النهضة، مرجع سابق**، ص: 71.

[2] – سورة الرعد: الآية: 11.

جانب ميتافيزيقي (كوني): وهو جانب ذو هدف عام وغاية. وجانب اجتماعي : يرتبط بسلسلة من الأسباب.. وهذين الجانبين واضحين كل الوضوح من خلال مختلف أحداث التاريخ لأن مضمون الأحداث التاريخية يتجاوز إطار الظواهر والأشياء ليتضح الجانب الميتافيزيقي (الغيبي) لهذه الأحداث التاريخية. وبعد تحليل مسهب في تفسير الحركة التاريخية ولدور الفكرة الدينية في إيجاد الحضارة. يخلص مالك بن نبي إلى ضرورة إعطاء «الأحداث تفسيرا متكاملا يتفق مع مضمونها كله، بحيث يجب ألا نحبس تصورنا لها في ضوء العلاقات الناتجة عن الأسباب بل ينبغي أن نتصور الأحداث في غايتها التي انتهت إليها في التاريخ. ومن هذا الجانب قد نحتاج أن نقلب المنهج التاريخي فنرى الظواهر في توقعها بدلا من أن نراها في ماضيها، ونعالجها في نتائجها لا في مبادئها.

فماذا لو قدر (لبايزيد) أن ينصب رايته على أطلال فينا ثم على أطلال برلين..؟ ولو حدث هذا لأذعنت أوربا حتما لصولجان الإسلام الزمني المنتصر.. ولكن ألا يدفعنا هذا إلى أن نرى أن توقعا مختلفا تمام الاختلاف عما حدث فعلا كان سيحدث في التاريخ..؟»[1].

وهذا المنهج في قراءة التاريخ الذي يركّز على نتائج الحدث التاريخي لا على أساس مبادئ الحركة التاريخية، يكشف عن ضغط الواقع على فكر مالك بن نبي الذي كان يلحظ بحزن واقع التخلف الإسلامي. أين كان العالم الإسلامي يتخبط في شتى مظاهر التخلف لا سيما فترة ما بعد إنسان الموحدين. مما جعله يختار قراءة الأحداث التاريخية من خلال النتائج التي تتمخض عنها لا من خلال المبادئ النظرية الفكرية أو الخلقية أو الفلسفية التي تدعو إليها.

والتركيز على جانب النتائج يكشف عن جوانب وشروط وأدوات وآليات العمل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لتلك الحركة التاريخية في تحقيق مبادئها وفق منهج علمي دقيق.

لأن الأحداث التاريخية التي تتحرك بالتركيز على قداسة مبادئها وأفكارها دون معرفة أو حساب لشروط التحقيق على الواقع تكون انعكاسات وآثار فشلها أشد تعقيدا وأشد تخلفا.

وعليه فإن منهج مالك بن نبي في قلب قراءة التاريخ من خلال النتائج يبين مدى حرصه على خطة العمل كأساس لنجاح المبادئ وتقييم الحركة التاريخية.

2- قراءة مالك بن نبي للتاريخ الإسلامي (الحضاري):

يرى مالك بن نبي أن حركية المجتمع الإسلامي مرت بثلاث مراحل هي:

أ- مرحلة الروح : وتميز هذا الطور الحضاري بأروع أشكال التقشف وبالمواقف الأشد بذلا من الصحابة واستخدام وسائله المتواضعة لتغطية أوسع قطاع ممكن من المجتمع [2].

---

[1] - مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق**، ص: 176.

[2] - مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ط 1، دار الفكر الجزائر، 1992، ص:45.

ب– مرحلة العقل : حيث أخذ تأثير الروح يخف ويضعف شيئا فشيئا ليعرف هذا الطور الحضاري ذلك التوسع المادي ومختلف الكشوف العلمية والإنجازات العمرانية.

ج – مرحلة الغريزة : وفي هذا الطور الحضاري يمس الضعف الروح والعقل وتختفي عناصر الإبداع والاختراع لتنطلق الغرائز إلى عالم الشهوات.

ومن هذه المراحل يتضح أن فكرة مالك بن نبي عن المجتمع الإسلامي الذي تدحرج من عالم الأفكار في مرحلة الروح إلى مرحلة الأشخاص في مرحلة العقل إلى مرحلة الأشياء في مرحلة الغريزة.

ومن الجيل الذي يبني الحضارة والدولة إلى الجيل الذي يحافظ إلى الجيل الذي يهدم وعلى هذا الأساس يدرس ويقسم مالك بن نبي التاريخ الإسلامي.

من مرحلة الروح وهي مرحلة الفكرة الروحية والبناء إلى مرحلة العقل والإبداع مع توقف إشعاع الروح إلى مرحلة الغريزة والشهوات وهي ميزة الجيل الذي يهدم ويخرب.

فمالك بن نبي لا ينظر للتاريخ الإسلامي كأحداث وإنما ينظر إليه من خلال الاتجاه والخط العام الذي ميز حركة المجتمع الإسلامي وبالتالي الحضارة الإسلامية.

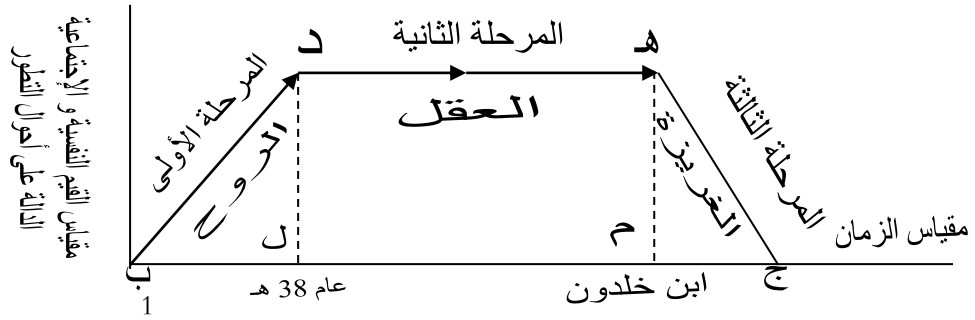

إن تناول الحضارة الإسلامية بالتحليل ومعرفة عوامل ارتقاءها أو تقهقرها يرتبط بعاملين هما الفكرة الإسلامية والإنسان المسلم وأساس العلاقة بينهما.

ولذلك فكل القيم النفسية الزمنية التي تميز مستوى حضارة ما في وقت معين ليست إلا ترجمة تاريخية لهذه العلاقة العضوية بين الإسلام والفرد.

وهي الحالة التي يعرفها بعض المسلمين بـ (الفطرة) وبقدرة هذه الفكرة الدينية على إخضاع الغرائز، فقد كان المجتمع الإسلامي في تلك المرحلة لا يتحدث بلغة غريزة اللحم والدم كما أن صوت العقل كان لا يزال صامتا في هذا المجتمع الوليد [2].

---

[1] – مالك بن نبي، **شروط النهضة** ، **مرجع سابق** ،ص: 74.

[2] – **المرجع نفسه**، ص: 75.

وإذا تأملنا صوت العقل في هذه المرحلة نرى كيف أن الوحي كان الصوت والمنهج الوحيد في تلك الفترة وكيف تصدى النبي صلى الله عليه وسلم لتلك المحاولات العقلية التي أرادت إخضاع الحياة الدينية لمنهج العقل فقد نهى النبي (صلّى الله عليه وسلّم) عن الخوض في قضايا المتشابه وضرب القرآن بالقرآن. كما تصدى عليه الصلاة والسلام أيضا إلى سلوكات الاستهتار كغضبه للذي طلق زوجته ثلاثا وقال: أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم.
كل ذلك يكشف عن الجو الروحي الذي ميز وسيطر على تلك الفترة. إلا أن هذا العالم الإسلامي وهذا المجتمع سرعان ما عرف أول انفصال في تاريخه في معركة صفين عام 38 هـ، إذ كان يحمل بين جنبيه بعد قليل من سنوات ميلاده تعارضا داخليا: كانت (حمية الجاهلية) تصطرع مع (الروح القرآني). وبمجيء العهد الأموي تحطم ذلك البناء الذي قام لكي يعيش ربما إلى الأبد بفضل ما ضمته من توازن بين عنصر الروح وعنصر الزمن.
ومنذ ذلك الانفصال الأول فقد العالم الإسلامي توازنه الأولي على الرغم من بقاء الفرد المسلم متماسكا في قرارة نفسه بعقيدته.
ومع ذلك فنحن ندين لتلك الحضارة المنحرفة كما يقول بن نبي التي ازدهرت في دمشق في ظل الأمويين باكتشاف النظام المئوي وتطبيق المنهج التجريبي في الطب.
والحق أن العالم الإسلامي لم يقو على البقاء إبان تلك الأزمنة الأولى إلا بفضل ما تبقى فيه من دفعة قرآنية حية قوية. وهذا يدل على قيمة الفضائل الخلقية باعتبارها قوة جوهرية في تكوين الحضارة.
إلا أنه ببلوغ عوامل التعارض الداخلية قمتها يصير المجتمع حتما إلى حالة التمزق والوهن ليصير إلى مرحلة الانحطاط. إذ لم يعد الإنسان والتراب والزمن عوامل حضارة بل أضحت عناصر خامدة ليس بينها صلة مبدعة وتبدأ هذه المرحلة حسب مالك بن نبي بسقوط دولة الموحدين فإنسان ما بعد حضارة الموحدين كان إنسانا يحمل جميع الجراثيم التي سينتج عنها في فترات متفرقة لاحقا جميع المشاكل التي تعرض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين.
وعندما يبلغ مجتمع ما هذه المرحلة أي عندما تكف الرياح التي منحته الدفعة الأولى عن تحريكه تكون نهاية (دورة) وهجرة (حضارة) إلى بقعة أخرى تبدأ فيها دورة جديدة طبقا لتركيب عضوي تاريخي جديد [1].
ولا شك أن مالك بن نبي بهذا التحليل التاريخي الدقيق يجتهد لإعطاء الفكر الإسلامي هذا البعد الهام حتى لا يتحول إلى تنظير مثالي مجرد لم يعرف طريقه إلى الواقع يوما كما يمنحه فرصة لتقييم نفسه على ضوء تطبيق الفكرة الدينية في الواقع وملاحظة مدى تجاوب الإنسان معها على اختلاف العصر والزمان.

[1] – مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص: 31.

3- موقع الإنسان في البناء الحضاري عند مالك بن نبي:

اهتم مالك بن نبي بدراسة الإنسان من جوانب متعددة سواء في صورة الإنسان (الفرد) أو الإنسان (الجماعة)، ليميز بين المجتمع الطبيعي كنموذج للمجتمع الساكن ذو المعالم الثابتة والمجتمع التاريخي المتحرك الذي يخضع لقانون التغير.

وبرصد الفروق الكثيرة بين هذين النمطين على مستوى الأشياء والأشخاص والأفكار يتضح دور الإنسان في كل مجتمع من هذين المجتمعين مع إمكانية أن يتحول المجتمع الطبيعي إلى مجتمع تاريخي بدخول فكرة تصنع الفاعلية والتوتر اللازم للحركة التاريخية.

وقد جاءت كتابات مالك بن نبي كما يقول عمر كامل مسقاوي: « منذ الأربعينات تكشف عن هذه الزاوية من الفكر الإسلامي الحديث ذلك أن الإنسان هو الهدف الأول والأخير في كل نشاط فكري واجتماعي. ولقد واجه السلفيون هذه المشكلة بدعوة المسلم إلى أصالة العقيدة كما واجهها الديمقراطيون» [1] بمفهوم سياسي ينظم نشاطه الاجتماعي فيما دعى المنهجيون لمزيد من العلم بقواعد المنهج.

ولكن هؤلاء جميعا وضعوا المسلم في إطار مكدس من الطروحات من دون منهج لبناء الإنسان.

ومن هنا تنطلق أفكار مالك بن نبي لا لتضيف للمجتمع الإسلامي معرفة جديدة بالفقه أو علما مستخلصا من تجارب الحضارة الحديثة بل لتنظيم هذه المعارف في مفاهيم تربوية تسير بالإنسان خطوة متقدمة.

لأن التفكير في مشكلة الإنسان إنما هو تفكير في مشكلة الحضارة فالإنسان هو محور الحضارة والإمكان الحضاري لكل مجتمع إنما يرتبط بالإرادة الحضارية وهذه مرتبطة بالعقيدة التي تمنحها شروط الانطلاق حيث يأخذ الفكر مكانه في توجيه طاقتها [2].

كل هذا يساعدنا على فهم رؤية مالك بن نبي للإنسان والتي كان حريصا على طرحها في إطارين:

- الإطار الحضاري. - إطار الفكرة الدينية.

والحقيقة أن حرص مالك بن نبي على ضرورة فهم موضوع الإنسان من خلال هذين الإطارين يعود إلى إيمانه وقناعته بكون الفكرة الدينية هي أقوى فكرة قادرة على إحداث التغيير النفسي اللازم لإيجاد المجتمع التاريخي المتحرك (الحضاري) ولقناعته بكون الإنسان يعدّ شرطا أساسيا ضروريا في المعادلة الحضارية.

والحقيقة أن مكانة الإنسان في منظومة مالك بن نبي الفكرية تدور حول مبدأ الاستخلاف في الأرض وأن كل ما في الكون من موجودات ومخلوقات مسخرة له فالإنسان ليس في نظره ذلك الكم الذي تجري عليه الإحصائية والوزن، و إنما هو الصفة التي قرنها الله بالتكريم في سلالة آدم [3].

---

[1] - الديمقراطية: كلمة يونانية Democratos و تعني حكم الشعب.

[2] - عمر كامل مسقاوي، **نظرات في الفكر الإسلامي ومالك بن نبي**، ط 1، دمشق، دار الفكر، 1979، ص:26.

[3] - مالك بن نبي، **في مهب المعركة**، د.ط.، دار الفكر، دمشق، 1986، ص: 163-165.

ويرى مالك بن نبي أنه إذا كان للكون قوانين دقيقة ينضبط بها فإن الإنسان بصفته خليفة في الأرض بنص الوحي: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[1] لا يسير وفق هواه وإنما يسير إلى غاية محددة بقوانين مضبوطة هو الآخر. أما موقفه من الأشياء وأدوات الحضارة فتحددها تربيته وما نشأ عليه من قواعد أخلاقية وسلوكية، لأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمتلك تلك القوة التي تتجاوز العالم المحسوس وهي العقل.

لقد كان الإنسان محور اهتمام الرسالات السماوية التي اتجهت إلى تربية الإنسان وتهذيب نوازعه وسلوكاته فالحضارة تؤكد دوما الشرط الإنساني. والتاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق بين جهده وبين مثله الأعلى وحاجاته الأساسية فيؤدي رسالته المزدوجة في المجتمع بوصفه ممثلا وشاهدا.

وينتهي بالإنسان المتحلل، الذي يعيش في مجتمع منحل إذ لم يعد يقدم لوجوده أساسا روحيا أو أساسا ماديا[2].

ويقرر مالك بن نبي أن التاريخ الذي هو مسرح الإنسان وتحوله وعلى مدى الستة آلاف سنة التي وجدت فيها الحضارة البشرية على الأرض ظهرت خلالها إحدى وعشرون تجربة حضارية منفصلة كل واحدة منها عن الأخرى بحيث لا تزال بعضها قائمة إلى حد اليوم إلا أن هذه الحضارات جميعا لها هدف واحد فكلها تهدف إلى تحويل الطبيعة البشرية الخام إلى مادة أنقى لتحويل الإنسان الأدنى إلى إنسان أعلى للارتفاع بمستوى البشرية من مستوى الحياة الحيوانية ذات الطابع الاجتماعي إلى المستوى الإنساني الذي يشارك معه القديسين، فصراع الحضارات لا يزيد عن كونه صراعا بين الإنسان والإنسان[3].

وعليه فنظرة مالك بن نبي إلى الإنسان نظرة جمع فيها بين البعد العقدي الديني بالبعد الحضاري، رافضا أي فصل بينهما. ويرى مالك بن نبي أن الإنسان يتكون من جانبين: جانب يعبر عن الناحية المادية الجسمية للإنسان. قال تعالى: ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ**﴾[4] وكلمة " بشر " في لغة العرب وفي القرآن على حد سواء تعبر عن الجانب المادي للإنسان وتوازنها كلمة "HOMO" باللغة اللاتينية وهو اشتقاق من كلمة الأرض "HUMUS" فهو قطعة منها.

وفي دلالات كلمة إنسان التي تدل على معاني الأنس فيه إشارة إلى البعد الروحي والنفسي للإنسان. ويذهب مالك بن نبي أن هذا البعد الروحي قد أهمل على حساب البعد المادي في الحقب التاريخية السابقة حيث يقول: "إن الحاجات التي دعت الأفراد إلى التخصص كان معظمها إن لم نقل كلها حاجات مادية أما الحاجات التي أصبحت اليوم تفرض تخصصا على الكتل البشرية فإنها حاجات غير مادية إنها معنوية إيديولوجية " [5].

---

[1] – سورة البقرة: الآية:30.

[2] – بن نبي، مالك، **وجهة العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص ص: 32 – 33.

[3] – فرنكل، تشارلز، **أزمة الإنسان الحديث**، بيروت، دار الملايين، 1959، ص: 173 – 177.

[4] – سورة ص: الآية: 71.

[5] – مالك بن نبي، **تأملات**، ط 5، دار الفكر، دمشق، 1991، ص ص: 207، 208.

ولما كان مالك بن نبي حريصا على رؤية قضية الإنسان من الزاوية الحضارية وربطها بالنهضة وبالإنسان المسلم نجده يقدم مزيدا من التعريف لحقيقة الإنسان، فيقول " يجب ألا ننسى أن الإنسان لا يدخل العمليات الاجتماعية بوصفه مادة خاما بل يدخل في صورة معادلة شخصية صاغها التاريخ وأودع فيها خلاصة تجارب سابقة وعادات ثابتة تحدد موقف الفرد أمام مختلف المشكلات...

إن هذا الإنسان ليس قضيبا من الحديد نضعه تحت المجهر أو تحت تأثير مادة مشعة لنختبره إذا ما أردنا استعماله في تركيب ميكانيكي معين.

إن اختبار الإنسان لا يمكن أن يكون من النوع الستاتيكي مثل قضيب الحديد في الظروف العادية بل يجب أن يكون من النوع الديناميكي أعني أنه يجب أن نختبره في حركاته لا في سكناته.

وإذا اعتبرنا أن التاريخ إنما هو تسجيل لحركات مجتمع معين فأي قطعة منه نحللها نجد في نهاية التحليل الصورة الحقيقية لحالة الفرد بالنسبة إلى ضرورات المجتمع ممّا يدلنا على مواطن الضعف في مجتمعنا[1].

ويعترف مالك بن نبي بقوة تأثير العوامل النفسية في صناعة الحركة الحضارية (التاريخ) والتي تمثل أساس الدورة الحضارية الخالدة فعندما يبلغ مجتمع ما هذه المرحلة أي عندما تكف الرياح التي منحته الدفعة الأولى عن تحريكه تكون نهاية (دورة) وهجرة (حضارة) إلى بقعة أخرى تبدأ فيها دورة جديدة طبقا لتركيب عضوي تاريخي جديد [2].

وفي تحليله لقضية الإنسان في بناء الحضارة يركز مالك بن نبي على دور العوامل النفسية باعتبارها أقوى العوامل في بناء الإنسان باعتباره العنصر الأساسي الأول في بناء الحضارة.

ويركز مالك بن نبي على العوامل النفسية كأساس للبناء الحضاري باعتبارها العوامل الأكثر قوة وتأثيرا، انطلاقا من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[3] ، وهذا المبدأ القرآني ينطبق على المجتمعات في حركتها التاريخية. ومالك بن نبي بذلك لا يوافق على الطرح المادي الاقتصادي الذي يرى أن مشكلة الإنسان هي مشكلة وسائل وأدوات.

وهو في تشخيصه لحالة المجتمع الإسلامي يرى أن إنسان ما بعد الموحدين كان بداية لمرحلة الانحطاط، فقد كان إنسان ما بعد الموحدين «... يحمل في كيانه جميع الجراثيم التي سينتج عنها في فترات متفرقة جميع المشاكل التي تعرض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين، ... ونحن ندين له بمواريثنا الاجتماعية وبطرائقنا التقليدية التي جرينا عليها في نشاطنا الاجتماعي، ليس ذلك فحسب، بل إنه يعيش الآن بين ظهرانينا وهو لم يكتف بدور المحرك الخفي الذي دفعنا إلى ما ارتكبنا من خيانة لواجبنا، وأخطاء في حق نهضتنا، بل لقد اشترك معنا في فعلنا، لم

---

[1] – **المرجع نفسه**، ص ص: 182، 183.

[2] – مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص: 31.

[3] – سورة الرعد: الآية: 11.

يكتف بأن بلغنا نفسه المريضة التي تخلقت في جو يشيع فيه الإفلاس الخلقي والاجتماعي والفلسفي والسياسي، فبلغنا ذاته أيضا»[1].

وقد كان الغزو الاستعماري للعالم الإسلامي من ثمار إنسان بعد الموحدين ليقوم الاستعمار بالعمل على تطبيق سياسة رهيبة في المجال السياسي والعسكري والثقافي لمزيد من القهر والاستعباد للبلاد والعباد.

وقد اتجهت جهود المصلحين والوطنيين والمقاومات والثورات التي عرفها العالم العربي والإسلامي للعمل على التخلص وتصفية الوجود الاستعماري غير منتبهين إلى ضرورة تصفية الإنسان من القابلية للاستعمار أولا لأنها المسئولة أساسا عن الفوضى الحاصلة في العالم الإسلامي.

هذا وقد آمن مالك بن نبي بأن المجتمع الإسلامي تنقصه مرحلة نفسية لتحقيق شروط الإقلاع الحضاري كتلك المرحلة النفسية التي أطل بها المجتمع المسيحي في أوربا[2].

ولكن ما طبيعة الفكرة التي يمكنها أن تحقق التحول النفسي والتغير المطلوب؟ وهذه الفكرة التي آمن بها مالك بن نبي ليست سوى الفكرة الدينية الإسلامية.

4- أبعاد فاعلية الفكرة الدينية ودورها في البناء الحضاري:

تشكل فكرة الفاعلية أهم ميزات فكر مالك بن نبي فقد سعى من خلال كتبه إلى استقراء الأسباب التي أدت إلى حالة التخلف والجمود التي أصابت العالم الإسلامي محاولا في الوقت نفسه تقديم مشروع حضاري يكون كفيلا بإخراج الأمة من حالة الضعف والقابلية للاستعمار لكي تستعيد كرامتها ومنزلتها التاريخية.

وقد حاول مالك بن نبي معرفة أسباب إخفاق الحركة الإصلاحية في إحياء روح الفاعلية في الأمة متسائلا إن كان الخلل في المنهج أم في التصور أم فيهما معا؟

ولقد كانت صورة إنسان ما بعد الموحدين أشد الصور مأساوية في عقل مالك بن نبي ليكون بمثابة الديناميت الناسف الذي يحاول نسف قلعة الصمت والتأمل والأحلام... ليستيقظ إنسان ما بعد الموحدين في المغرب وإنسان ما بعد سقوط بغداد على يد هولاكو المغولي.

ويرى مالك بن نبي أن الأمة الإسلامية تملك مقومات الفاعلية المتمثلة في مصادرها من القرآن والسنة بعكس الحضارة الغربية التي رأى: أنها لا تملك من مقومات الفاعلية ومصادرها ما تملكه أمة الإسلام. فوجد أن الفاعلية هي إحدى خصائص العقل الغربي وأن هذا العقل يخضع لمبدأ الفاعلية والتي لا يمكن النظر إليها بمعزل عن المرحلة الحضارية التي يعيشها الغرب والتي لا يمكن فصلها عن الإطار الحيوي فهي خاصية ناتجة عن نمط الثقافة الغربية التي ترتكز على القوة ومنطق الحسم كما أنها ناتج معادلة اجتماعية تجعل من حركة الإنسان في التاريخ ومدى

---

[1] - مالك بن نبي، **المرجع السابق**، ص:37.

[2] - عمر كامل مسقاوي، **المرجع السابق**، ص: 19.

تحقيقه لأكثر النتائج على المستوى المادي هي المقياس الحقيقي للفاعلية حيث توفرت هذه الخاصية للرجل الغربي على المستويين: الفردي والاجتماعي [1].

وحينما انتقل مالك بن نبي إلى ملاحظة اللافعالية في المجتمع الإسلامي خلص إلى أن الذي ينقص البلاد الإسلامية عموما هوالمنطق العملي. إضافة إلى أن العجز في الأفكار أنتج عجزا في المجال النفسي (المراقبة الذاتية) وفي مراجعة (النتائج)، ففكرنا لا يقيم علاقات بين النشاطات والجهود والوسائل من ناحية ونتائجها من ناحية أخرى ومفهوم المحصول لا وجود له في تربيتنا.

وقد لاحظ كذلك أن النشاطات النموذجية في المجتمع الإسلامي يغلب عليها طابع التبديد والفقر والجهل. مما جعلها محدودة الفعالية في الزمان والمكان [2].

وقد تساءل مالك بن نبي عن سبب غياب تيار فكري نوعي في العالم الإسلامي كما هو الشأن في العالم الشيوعي والعالم الغربي. يكون قادرا على تحقيق هذه الفاعلية ليضع يده على الداء الذي يمثله سلوك أحد الوعاظ المصلحين الذي يبغي إصلاح المجتمع بكلماته ومواعظه أحد أشكاله. إذ أن وعظه ليس عملا اجتماعيا ولكنه مجرد واقعة لفظية أخلاقية تتجه إلى الماضي أكثر من اتجاهها نحو المستقبل.

وإننا في كل مرة كما يقول مالك بن نبي: « نقف فيها أمام مظهر من مظاهر اللافعالية في المجتمع الإسلامي نرى أنفسنا مجبرين على ربطه بعالم أفكارنا»[3].

وقد كان لمالك بن نبي تقييم خاص للحركة الإصلاحية التي أعجب وأشاد بجهود رجالها أمثال: جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، حسن البنا وغيرهم.

فقد رأى أن الحركة الإصلاحية رغم نجاحها في تحديد القيم الإسلامية إلا أنها عجزت عن الإمساك بالواقع والتحكم فيه مما طبع جهود رجالها بطابع الدفاع والتبرير وجعلها تتجه للماضي أكثر من اتجاهها للمستقبل.

فجمال الدين الأفغاني أحدث هزة فكرية وسياسية إلا أن جهوده اصطدمت بمجتمع غارق في التخلف والجهل يعاني من التفكك والتمزق الداخلي. مما حدا بتلميذه محمد عبده إلى محاولة إصلاح هذا الوضع الداخلي بالتركيز على علم العقيدة فاتجه إلى إصلاح علم الكلام بوضع فلسفة جديدة تتمكن من تغيير النفوس والواقع. لكن جهوده انحصرت في الجانب العقدي وفقدت فاعليتها الاجتماعية.

ويعتقد مالك بن نبي أنه لو استطاعت الحركة الإصلاحية أن تقوم بترتيب أفكارها وأن توّحد الأفكار والأصول التي توصل إليها الشيخ محمد عبده والآراء السياسية والاجتماعية لجمال الدين الأفغاني لأمكن للحركة الإصلاحية أن

---

[1] – وصفي، عاشور أبو زيد، **فكرة الفاعلية عند مالك بن نبي**، مجلة رؤى، العدد 20، السنة 2003، مركز الدراسات الحضارية، باريس، ص: 13.

[2] – مالك بن نبي، **فكرة كمنويلث إسلامي**، ترجمة الطيب الشريف، ط 2، دار الفكر، الجزائر، 1990، ص .ص:59 – 62.

[3] – **المرجع نفسه**، ص: 64.

تصل إلى طريق أفضل. حيث أكد على ضرورة الجمع بين الجهود المختلفة: الجهود السياسية والاجتماعية والجهود في مجال العقيدة وعلم الكلام. و أنّ فاعلية النص القرآني تتضح في جانبين: الواقع والبعد العالمي.

فالفكرة الدينية يجب أن تكون لها وظيفتها الاجتماعية ومن جهة ثانية فإن فاعلية الفكرة الدينية تجعل منها فكرة عالمية وليست فكرة إقليمية ضيقة.

وبعد أن يضبط مالك بن نبي الأساس المحرك لهذه الفاعلية في الفكرة الدينية ينتقل إلى تحديد محور هذه الفاعلية وهو الإنسان. كأحد عناصر المعادلة الحضارية: التراب، الإنسان، الزمن.

وهذه الفاعلية تتنوع إلى:

أ– فاعلية العقيدة: إن أزمة المجتمع المسلم هي أزمة منهجية عملية في الأساس وهذا التشخيص هونفس تشخيص محمد إقبال.

ولذلك انتقد مالك بن نبي مدرسة محمد عبده الكلامية في تعاملها مع المشكلة الإسلامية... ورأى أن المدرسة الإصلاحية تهدف إلى تخريج متخصصين بارعين أكثر مما تتجه إلى تكوين دعاة مخلصين..بالرغم من أن هذه المدرسة نجحت في إزالة بعض الركود الذي ساد مجتمع ما بعد الموحدين [1].

ب– فاعلية الثقافة: الثقافة هي المحيط الذي يصوغ كيان الفرد كما أنها مجموعة من القواعد الأخلاقية والجمالية...وعلى هذا الأساس تكون الثقافة نظرية في السلوك أكثر من كونها نظرية في المعرفة. وفي هذا التحديد يكّمن الفرق بين الثقافة والعلم فالثقافة سلوك أما العلم فمعرفة، بخلاف الثقافة العربية الإسلامية التي تحتوي على الجانبين معا.

والسؤال الجوهري بعد هذا التحديد يتمثل في البحث عن التخطيط التربوي القادر على خلق نموذج الإنسان المطلوب ويقارن مالك بن نبي في هذا المجال بين مختلف النماذج التثقيفية في العالم في اليابان وفي الغرب وفي العالم الإسلامي.

ج– فاعلية الأفكار: يتناول مالك بن نبي قضية الأفكار كما سبق أن أشرنا إليها في المبحث السابق لقوة علاقة النشاط العملي بعامل الفكر لأن الفكر هو الدافع الأساسي للنشاط العملي.

إن كل نهضة حضارية ترتكز أساسا على مرجعية فكرية قوية فمقياس عظمة المجتمع لا تقاس بالأشياء وإنما تقاس بالأفكار. ولهذا كان عالم الأفكار من أخطر العوالم التي أدرك الاستعمار أهمية وظيفتها. ولهذا كان الحرص على فاعلية الأفكار تقوم على عنصري الصحة والصلاحية مما يدعو إلى التمييز بين الأفكار الصحيحة والباطلة للتلازم الذي سبقت الإشارة إليه.

وهنا ينبغي التنبيه إلى ضرورة عدم الخلط بين الفاعلية والصحة حتى لا تستخدم للتشكيك في عقائد المسلمين كعقيدة صحيحة ووضع المسلمين في أسفل درجات السلم الحضاري.

---

[1]– وصفي عاشور أبو زيد، **المرجع السابق**، ص: 16.

حيث يجب التمييز بين فاعلية الأفكار وترابط الأواصر الاجتماعية أما عنصر الصلاحية فيجب التمييز بين الأفكار الموضوعة والأفكار المطبوعة.

ويؤكد مالك بن نبي أن المجتمع الإسلامي لم تكن تنقصه الوسائل ولكن تنقصه مرحلة نفسية تبرز عالم فكره في إطار وظيفة تتصل بتطوره، وهذه المرحلة النفسية التي تنقصه هي الشرط الأساسي لإقلاعه الحضاري كتلك المرحلة النفسية التي أطل بها المجتمع المسيحي في أوربا على الاقتباس من التراث الإسلامي عبر الأندلس [1].

وفي سعيه لبعث هذه اليقظة النفسية في جسم العالم الإسلامي يرى مالك بن نبي أن العالم الإسلامي في الوقت الراهن غير مستعد للأعمال الحضارية الكبرى كما أن اللافاعلية في العمل الإصلاحي تتمثل في مجهودات خطابية هي في الحقيقة نوعا من تبديد الطاقات والجهود في معارك وهمية لا وجود لها.

كما أن العالم الإسلامي يشبه إناء مغلقا تتفاعل فيه عشرات ومئات المذاهب والاتجاهات المتناقضة.. في صراع عنيف ليماثل عملية كيميائية ذات عناصر متنافرة، بحيث نستطيع تقسيم العالم الإسلامي إلى ما أطلقنا عليه (العوالم الإسلامية)[2]... وعدم توحد الرؤى والمفاهيم يجعل هذا العالم في مجمله فريسة للاستعمار.

وعلى ضوء ما سبق يخلص مالك بن نبي إلى الاعتقاد بكون الإسلام هو السبيل الوحيد لليقظة النفسية والقوة الروحية والفكرية التي لا تتحطم.لكون الفكرة الدينية تتضمن جانبين مهمين: الصحة وقوة الفكرة في قدرتها على الإقناع العقلي والتأثير العاطفي المتزن الذي يتجسد من خلال جانب السلوك الحضاري.

وفي الوقت الذي ناقش فيه مالك بن نبي العوامل النفسية ودورها الحضاري، لم يهمل الجانب الاجتماعي حيث يؤكد على قوة العلاقة بين حركية المجتمع والنظام الفكري لهذا المجتمع فقوة المجتمع وضعفه تصنعه نوعية الأفكار التي تحكم هذا المجتمع.

ولذلك فإن المشكلة الحضارية هي مشكلة أفكار بالدرجة الأولى لأن الأفكار الرائدة هي التي تنشئ الحضارة وحينما تدخل فكرة عظيمة مسرح التاريخ الإنساني فإنها تعمل على تحريكه وإعادة بناء عالم الأشخاص وعالم الأشياء.

وهو في تناوله لمشكلة الأفكار في العالم الإسلامي نراه يتناولها بشمولية فهو يركز أولا على طبيعة الأفكار التي ميزت المجتمع الإسلامي في كل مرحلة من مراحله محللا حقيقة عالم الأفكار وما يرتبط به من مجالات لينبه في النهاية إلى حقيقة الأفكار الميتة والمميتة. التي هي جزء من تركيبة مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.

حيث يرى أن المجتمع التاريخي يسجل مراحل ثلاثة: مرحلة ما قبل التحضر، ومرحلة التحضر ومرحلة ما بعد التحضر والعامل الجوهري الذي يصنع هذه المراحل هي قضية الأفكار.

فالمجتمع في مرحلة ما قبل التحضر تكون أفكاره بسيطة وتعد البيئة الجاهلية أصدق تمثيلا له، كما أن عالم الأشياء يتميز بالفقر وتكون الأشياء فيه بدائية: كالسيف والرمح أو الوتد والقوس والسهام، والجمل والحصان وقد اختزل

---

[1] – عمر كامل مسقاوي، **المرجع السابق** ، ص: 19.

[2] – مالك بن نبي، **فكرة كومنويلث إسلامي، مرجع سابق**، ص، ص:28-44

عالم الأشخاص في المجتمع الجاهلي في حجم القبيلة أما عالم الأفكار فقد تمثل بوضوح في تلك القصائد المشهورة بالمعلقات.

وحينما تضيء فكرة كما أضاءت فكرة في غار حراء بدأت بكلمة "اقرأ" فإنها قضت على عزلة مجتمع الجاهلي وشرعت تهدم ما بداخله لتؤسس عالما جديدا من الأشخاص والأفكار تتمحور فيه كلا من الأشياء والأشخاص حول الأفكار.

أما في مرحلة ما بعد التحضر فإن الأفكار الدافعة المحركة لهذا المجتمع تصاب بالجمود ويتحول إلى مجتمع استهلاكي تعود فيه سيطرة الأشياء على عالم الأشخاص والأفكار...

وهذا ما حدث للعالم الإسلامي بعد سقوط بغداد بقرن قبل سقوط غرناطة فقد كان عصر ما بعد الموحدين عصرا تجمدت فيه الأفكار وكان عصر تخلف حضاري كبير [1].

وهذا يبين الدور الوظيفي للأفكار في كل مرحلة من مراحل المجتمع التاريخي. ولمّا كان عالم الأفكار ليس عالما ساكنا وإنما عالم له حياته وحركيته الخاصة به فقد دفعت مالك بن نبي إلى مزيد من الغوص أكثر في تحليل أبعاد هذا العالم فرأى أنها تقع ضمن ثلاث مراتب:

1- المرتبة الأخلاقية الأيديولوجية السياسية بالنسبة لعالم الأشخاص وحتى الفيزيولوجي.

2- المرتبة المنطقية الفلسفية، العلمية بالنسبة لعالم الأفكار.

3- المرتبة التقنية، الاقتصادية، الاجتماعية بالنسبة لعالم الأشياء.

وإذا ما حدث فساد واحد من هذه المفاصل الثلاثة للفكرة بتأثير أي عامل من العوامل وحدث فساد في علاقات الأفكار فيما بينها (مرتبة المنطق والفلسفة...الخ) أوفي علاقاتها مع عالم الأشخاص (مرتبة الإيديولوجية السياسية...الخ) أوفي علاقاتها مع عالم الأشياء (مرتبة التقنية والاقتصاد...الخ) فإن ذلك يولد اضطراب في الحياة الاجتماعية، وشذوذا في سلوك الأفراد[2].

ويخلص مالك بن نبي في دراسته لقضية الأفكار بالنسبة للعالم الإسلامي أن المجتمع الإسلامي عاش اللحظة المجيدة عند ولادة حضارته في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أو الخلفاء الراشدين وهي لحظة الأفكار المطبوعة، ثم عاش لحظة الأفكار الموضوعة في الفترات المضيئة لدمشق وبغداد ليعيش بعدها فترة الصمت، صمت الأفكار الميتة[3].

---

[1] - **المرجع نفسه**، ص ص: 37 – 40.

[2] - مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار** ...مرجع سابق، ص: 65.

[3] - **المرجع نفسه**، ص: 74.

ويحاول مالك بن نبي أن يقرأ هذا الدور الوظيفي للأفكار في شخصية المسلم الذي هو حجر الأساس للنهضة والحضارة ليعثر عليه في شخصية المسلم المنشطر إلى شخصين: المسلم الذي يؤدي واجباته الدينية ويصلي في المسجد والمسلم الذي يخرج من المسجد ليغرق في عالم آخر [1].

وهذه الصورة تشرح مدى التمزق الفكري الذي يعيشه المسلم المعاصر فهو يحيا بفكرين ونهجين وشخصين... الخ ولذلك يتساءل مالك بن نبي قائلا:هل ونحن في اللحظة التي نواجه فيها مسلما نواجه فيها شخصا أو شخصين أو ثلاثة..؟

ولا شك أن هذه الملاحظة لا نطرحها على المستوى الأخلاقي الفردي الضيق وإنما بالأساس من المستوى الحضاري أولا.

ويطرح مالك بن نبي المشكلة من زاوية أخرى حيث يقرر أنه لا يجب أن يكون هناك انفصال بين الأفكار والواقع الاجتماعي بل لا بد أن يكون ترابط مستمر وتلاحم مؤثر بين المعنيين: الأفكار والواقع الاجتماعي. وهذا التزاوج هو نفسه مقياس مستوى حضارة[2].

خاتمة :

لقد استطاع مالك بن نبي من خلال نظرته الحضارية العميقة لفت الأنظار إلى دور وقوة وفاعلية الفكرة الدينية في بناء الحضارة وخلق التفاعل التاريخي والحضاري – الإسلامي–، وهو في تحليله يعتمد مقاربة تاريخية قام من خلالها بتحليل العلاقة بين التاريخ والحضارة، وعرض من خلالها مختلف النظريات التي حاولت تفسير حركة التاريخ...

وتوصّل في دراسته إلى أن الحضارة تولد مرتين: الأولى حين تولد الفكرة الدينية، والثانية حين تولد في النفس. وكان شديد الاقتناع بدور وقوة وفاعلية الفكرة الدينية في إحداث التغيير الاجتماعي والأخلاقي المنشود من خلال تسليط الضوء على الإنسان كقيمة دينية وحضارية.

وفي تشخيصه لفكرة الفاعلية واللافاعلية.. نجده يقدم تحليلا معرفيا حضاريا وتقييما لجهود بعض رجال الحركة الإصلاحية.. في محاولة لإبراز الشروط الكفيلة بإحداث نهضة حضارية حقيقية.

والحقيقة أن مالك بن نبي في قناعتنا هو الرجل الذي استطاع الدفاع عن الإسلام بمسطرته الهندسية وقام بقياس مختلف المسافات النفسية والاجتماعية والأخلاقية لتحقيق نهضة حضارية إسلامية مرجعيتها الأساسية عقيدة التوحيد.

---

[1] – **المرجع نفسه**، ص: 75.

[2] – مالك بن نبي، **من اجل التغيير**، ط1، دار الفكر، دمشق، 2005، ص: 12.

قائمة المصادر والمراجع:

1- عمر كامل مسقاوي، **نظرات في الفكر الإسلامي ومالك بن نبي**، ط 1، دمشق، دار الفكر

2- فرنكل، تشارلز، **أزمة الإنسان الحديث**، بيروت، دار الملايين، 1959

3- مالك بن نبي، **تأملات**، ط 5، دار الفكر، دمشق، 1991

4- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عبد الصبور شاهين ، ط4 ، دار الفكر ، الجزائر ، 1987

5- مالك بن نبي، **فكرة كمنويلث إسلامي**، ترجمة الطيب الشريف، ط 2، دار الفكر، الجزائر، 1990

6- مالك بن نبي، **في مهب المعركة**، د.ط.، دار الفكر، دمشق، 1986

7- مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ط 1، دار الفكر الجزائر، 1992

8- مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية**، تر. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986.

9- مالك بن نبي، **من اجل التغيير**، ط1، دار الفكر، دمشق، 2005

10-مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ط5، دار الفكر، الجزائر، 1986

11- مولود، عويمر، **فكرة التاريخ عند مالك بن نبي، مجلة الرؤى** العدد 20، مركز الدراسات الحضارية، 2003

12-وصفي، عاشور أبو زيد، **فكرة الفاعلية عند مالك بن نبي**، مجلة رؤى، العدد 20، السنة 2003، مركز الدراسات الحضارية، باريس.